«أيها الرُعيان، لا يكون الذئب مخطئاً إلا عندما لا يكون الأقوى!»

جان دولا فونتين (1621م ــ 1695م)

من الذئب والرعيان.

الخلاصة

من يخاف من الذئب الشرير؟

قبل أن ننهي هذا الكتاب، لننظر إلى التلفاز للمرة الأخيرة وبإمعان، ولنقترب منه أكثر، فماذا نرى؟ ما الصور المشرقة أو القاتمة، المألوفة المحببة أو المخيفة؟ لماذا كل هذا الاستهتار دون مغزى، وكل هذه الأمور المرعبة المُولدة للكوابيس؟ ماذا يمثل هؤلاء الأبطال الرخيصون، وهذه الأخبار التي تُنقل بشكل مثير؟ ومن أين تأتي كل تكشيرات الحقد، وهذه البلاهات في الابتسامة المصطنعة التجارية؟ ولماذا هذا الذوق السقيم، ولماذا هذه السطحية المرعبة، وهذا الرفض للفهم والتحليل، وهذا الميل للأفكار المُسبقة التافهة؟

ألسنا نرى من خلال طيف الألوان الباهر على الشاشة صورة من أنفسنا في ذعرها الدنيء من الحياة، وفي اضطرابنا المضحك؟ أليست المخاطر التي نريد أن نحمي أطفالنا منها هي نفسها التي صنعناها بتؤدة من خلال تكوين مجتمعاتنا التي نعيش فيها؟ من أراد عالماً يتغلب فيه المال

علـى المقومات الشخصية، ويقدس فيه النجاح كمبدأ من مبادئ المجتمع؟ والمنافسة الشرسة التي يظهرها نظامنا التعليمي من أَسَسَها؟ ومن حرض الهروب الولهان من خلال الحلم ـ الذي أصبح فردوساً زائفاً ـ غيرنا نحن مواطنو المجتمعات الليبرالية التي نصفها بالمتطورة؟.

لقـد حصلنا على التلفاز الذي نستحقه، بينما لم نُتح لأطفالنا الفرصة لاختيـار العالم الذي نقدمه لهم، وكما يقـول المثل الصيني: «عندما يشير الإصبع إلى القمر فإن الأحمق ينظر إلى الإصبع ولا يرى القمر» في عصرنا لقد أصبح الإصبع رقمياً ـ إن صح التعبير ـ شارديا صوتياً مهبطياً مربوطاً بالكبل ومالياً، لقد أصبح الإصبع مغطىً بكف من الحرير البصري، ولكنه مازال إصبعاً، وغدا الأحمق أكثر حمقاً من أي وقت مضى، وحتى القمر بعد أن غزته وكالة الفضاء الأمريكية NASA لم يعد سوى صورة افتراضية.

إحـدى شعارات انتفاضة 1968م في فرنسـا كان ينصح بالآتي: «كونوا واقعيـين، واطلبوا المستحيل». ونحن من جانبنـا نريد أن نذهب إلى ما هو أبعـد من ذلك: إننا نريد الحصول على القمر! ولسنا ضد الإصبع الذي لا يتمنـى أحد قطعه، ولسنا كالجـراح الذي يدعي أن العضـو الذي بتر منه جـزء قد شفي، مـا حاولنا فعله خلال الصفحـات المتتالية للكتاب لم يكن سوى تذكـير عنيد بالفرق بين القمر والإصبـع، إن تشويه الإصبع وإطالته وكسوتـه وحوسبتـه وجعله ديموقراطياً لا تستطيع تغيـير مهمته، والمجنون لـن يعود إلى رشـده إذا زاد عدد الأصابع التي تشير إلى القمر، بل إن هذا سيزيـد مـن تخبطه الذهني، ويبـدو للأسف أن الاتجـاه الحالي للإعلام سائـر بهذا الاتجاه، ويتناسـب تطور التقانات عكساً مـع المحتوى والمعنى، ويزداد العرض بجنون بينما تبقى نوعية المعروض ثابتة أو تتراجع، ويزداد

ثـراء تجار الصـور بينما ينخفض إبداع المخرجين، ويـؤدي تنوع المحطات لترسيـخ النمطية المملة الهزيلة للبرامج، ولا تزيدنا حرية الخيار المتزايدة سوى عبودية يوماً بعد يوم، وكلما زاد ثراؤنا كلما نقص انتماؤنا.

ولكـن بـدلاً من النحيـب لنرَ مـا يمكننا فعله نحـن، وهذا هـو الأهم. يصعـب علينا تغيـير العـالم إذا لم نبدأ بتغيـير أنفسنـا. فالتاريخ يطفح بأصحـاب العقول الجبـارة، والثوريـين الطيبين، والمصلحـين الجريئين، والقـادة الموهوبـين، ولكنهـا نادرة تلـك الانقلابات التي لم تنتـهِ بالعسف والرعـب ومعسكرات العمـل القهرية، أو بكل بساطـة بالعبارات الجوفاء: فكم من حرائق كبيرة تحولت إلى بؤر من الجحيم، وكم من نيران مقدسة أخمدت بالتُرهات، لا نحن لسنا بصدد تجهيز حملة تأديبية ضد المحطات التجارية، ولن نقود أي حملة صليبية ضد التلفاز، فقد بقي الرائي في مكانه في بيوتنا، ومازال أطفالنا يقضون بعض الوقت أمامه وحدهم أو بوجودنا، وقد يشاهدون برامج جيدة وأخرى أقل جودة، وبإمكان عمالقة الإعلام أن ينامـوا قريري الأعـين، فنحن لا نلومهم أكثر من سائـق الشاحنة الكبيرة الذي يخنقنا بدخان قاطرته أثناء تأدية عمله مثل كل الناس.

ولكن لنا أنياب كواسـر ضارية نرفض بها الاستسلام السهل والخمول العقلي والمسايرة الضعيفة التي تسمح لسدنة المعبد الإعلامي الادعاء بأننا أردنا هذه الرداءة المُشوهِة، أو أننا طلبنا هذا التعطيل التام للعقل بالتخدير الكامـل، أو أن أطفالنا يطالبون بالعنف والبشاعـة، إننا نرفض بكل قوانا أن نندمج في هذه التركيبة الهلامية اللزجة التي لا قوام لها ولا مادة فيها، والتـي لا تملك الشجاعة والفكر، والتي يدعونهـا الجمهور، هذه المجموعة التي لا وجود لها إلا في الإحصائيات الخيالية، والتي ليست إلا المتوسط بين

الكبير والصغير، والرجل والمرأة، وبين الشاي والقهوة والملح والسكر، وبين الحيـاة والموت، هذا الجمهور الذي ندعي أنه يطالب بالخبز المغلف مُسبق الصنع والألعاب التلفازية، ليس إلا تعبير عن الوسط غير الصحيح الواقع في منتصـف المسافة بين شُطآن المحيط ولازورد الجبـال الشامخة، وهذا يعني ببساطة أنه غير موجود.

إلى هذا الجمهور اللافقاري ضحية المتلاعبين الجشعين نقدم الإنسان المسـؤول عن نفسه وعن الآخرين، والمتمرد علـى تيار فكري واحد ديني أو سياسي، ولكنه بنفس الوقت متضامن مع كل أبناء جنسه، فالإنسان المميز يرفض أن تحتويه استطلاعات الرأي، فالتكافل الموجود بيننا لا علاقة له بالأغلبيـة، وخاصة أغلبية استطلاعات الـرأي بخصوص البرنامج الأكثر مشاهـدة والأقل مدعاة للتفكير بآن واحد، بما أننـا تكلمنا عن التربية في هذا الكتاب، فإننا نسمح لأنفسنا بأن نذكر بأن هدف الكتاب ليس أن نحول الطفل إلى مادة هلامية من الجمهور التلفازي، وإنما إلى إنسان بكل معنى الكلمـة، إنسان ينتمي لعصرنا، لا يخاف المستقبـل ولا يجهل الماضي، وفي علاقـة مباشرة مـع الحاضر، هذا الحاضر الذي يحتـل فيه التلفاز مكاناً مهماً، ولكن ليس كل المكان.

كي نُربّي علينا أن نبدأ بأنفسنا، كأن نطلب من الطفل التفكير، دون أن نقـوم نحن بهـذا، وهذا غير منطقي، أن نعلم الطفـل كيف يشاهد التلفاز بينمـا ندس رؤوسنا في الـتراب، يجعلنا هـذا السلوك في وضـع أسوأ من وضـع النعامة، التي لا تصنع من نفسها مثلاً للأجيال القادمة، أن نطالب الصغـير بألا يخضع لإغراء المشاهدة السهلة، بينما نعيش نحن حياة بالية لا يتعـدى كونه تناقض عقيم بحسب قـول كريشنامورتي: «أن نحرم الآخر

مـن الأحلام حتى التعيسة، بينما نحـن عاجزون عن أن نحلم ولو لحظة»، مُتذرعين بالحجج الواهية بأن هناك أموراً أخرى أفضل يمكن فعلها، هذه فعلاً حماقة.

ما ينطبق على التلفاز ينطبق على كل مشاريع الإنسان: على شاكلته!

فإذا كان واقعنا مطموس المعالم، وفاقداً للحياة وسطحياً، وكان لغزاً لا يستحق الحل، ومليئاً بأشخاص ضعاف الشخصية، فكيف نتوقع من هذا الواقع الممسوخ ببعديه على الشاشة الصغيرة أن يضيء فجأة بنور لا يملكه أصلـه، وكيف نريد لـه أن يأخذ أبعاداً تضاهي ارتفاع هيمالايا، يصبح بها العبد إلهاً، ويغدو به الأحمق حكيماً؟

نريـد التفاعـل؟ فلنبدأ بالتفاعل مـع أنفسنا، ومع المناطـق المنسية في حياتنا وضمائرنـا وأجسادنا، ولنتفاعل مع العالم الذي نحب وبدون جهاز تحكم عن بعد من فضلكم!

ولنتفاعـل مـع الهـواء الطلق الـذي لا يعزلنـا عنه سـوى حويصلاتنا الرئوية، ولنتفاعل مع أطفالنا، وليكن قلبنا هو مبعث السرور الوحيد.

وعندهـا ستقـع نظراتنا التي زالـت عنها الغشـاوة مندهشة على هذا الصنـدوق المكعب الـذي ندعوه التلفاز، وسيزول عجبنـا عندما نتأمل فيه مليـاً: إذاً فالأمر لم يكـن سوى هذا؟ مجرد آلة بسيطة عبقرية حقاً، كانت تسحرنـا بشـكل غريـب، وتخيفنا بدون مـبرر، ولكنهـا لا تستحق على كل الأحـوال هذا الاهتمـام المبالغ به، والإعجاب السـاذج، أو حتى الاشمئزاز العميق الذي أبديناه بصددها.

وماذا بعد ...

إن الكتاب الذي ستهنون قراءته قريباً لم يلد بين يوم وليلة، ففي القرن الماضي عندما اخترع ڤلاديمير زوركين محلل الصورة (إيكونوسكوب)، لم يخطر ببال أحد ما يمكن أن يكون لهذا الاختراع من نتائج، ولم يكن أحد يعرف إن كان له أي مستقبل.

وسريعاً أثبت الباحثون أن التلفاز ـ وإن لم يكن من اختراع الشيطان ـ ليس بالأداة البريئة، فالعلاقة بين عنف المشاهد ونقلها إلى الواقع لم يعد موضع شك بعد الآن، وقد أوضحنا هذا الأمر بجلاء في مقاطع سابقة من هذا الكتاب، وأكدت هذه المعلومة دراسة جدية جداً أجريت خلال 17 عاماً على سبع مئة وسبعة أطفال، نشرت في المجلة الراقية (العلم) Science في آذار 2002م لا تدع مجالاً للشك في صحتها، لم يسبق للإنسان أن تكلم عن الصحة كما تكلم عنها في هذه الأيام، ورغم ذلك فإن التسلية الأكثر شيوعاً بين بني البشر تتلخص بأن يغلق الإنسان على نفسه الباب في حجرة سيئة التهوية، وأن يُعد نفسه لحدوث أمراض القلب الوعائية بازدراد الطعام متسمراً أمام الشاشة الصغيرة.

عندما بدأ اهتمامنا بالموضوع في التسعينات كنا مقتنعين منذ ذلك الوقت أن تطور التلفاز نحو أشكال ضارة مؤذية حاصل لا محالة، ولكن كان يداعبنا الأمل أن تخيب الأحداث توقعاتنا، ففي النهاية لماذا لا يكون التلفاز قابلاً للتحسن؟ وأن يحسن وضع مُريديه؟

لسوء الحظ كان لابد من خفض النبرة، فما كان في ذلك الوقت يعتبر انحرافاً مزعجاً محتملاً ـ تلاعب واحتواء وتلصص وحث على العنف ـ

أصبح المحور الرئيس «للإبداع التلفازي». تم اختراق المرحلة الأولى مع قصة لوفت في البلدان الناطقة بالفرنسية (أصدقاؤنا على الطرف الثاني من الأطلسي هم السابقون وبمراحل في هذا النوع من التجديد). لا شيء يستحق الذكر ظاهراً: بعض الفتيات والفتيان المحجور عليهم في مكان مغلق تحت رقابة الكاميرا الدائمة ونظرات المشاهدين، هذا ما يسميه تلفاز الواقع الناس الأكثر تسامحاً، وما يسميه تلفاز القمامة أو تلفاز المرحاض المُطهرون في عصرنا، ولكن اللوفت قبل كل شيء هو اندفاع غير قابل للتراجع في طريق جديدة: لم يعد الأمر من الآن فصاعداً أن نعكس الواقع أو أن ننقده، وإنما أن ننتجه من الألف إلى الياء، تدَّعون أن الواقع الحقيقي للشباب الفرنسي معقد؟ ليس الأمر ذا أهمية، فستُعاد كتابته باختصاره إلى ما يمكن للشاشة أن تُبدي منه، الشباب يبحثون عن الحب، وهذه معلومة غير جذابة بلغة التلفاز؟ الأمر بسيط فسوف نربط القلب بالجنس من خلال عملية مهبطية تشرف عليها روح القدس، إن ما يصدم النفوس ليس هو ما يُعرض في اللوفت: قليلاً من المناظر الفاضحة بجرعة مقبولة، وضحالة فكرية واضحة، فكل هذا لا يقتضي منا تجهيز حملة صليبية لتطهيره، بالمقابل فإننا نشهد هنا نتاج التأثير التصميمي المشهور في مرحلته الأخيرة، فنحن لا نعرض على المُشاهد الشباب كما هم في الحياة، وإنما نعرض عليه ما يرغب برؤيته، ولكن بِبُعدين على الشاشة المسطحة.

في بطولة العالم الأخيرة لكرة القدم في اليابان وكوريا، لم يُنظر إلى الإقصاء المبكر لفريق فرنسا الكروي على أنه هزيمة رياضية، وإنما ككارثة اقتصادية، فاللاعبون الذين تحولوا إلى رجال ــ سندويتش بما يحملونه من الدعايات على الوجهين، والذين كانوا الضامنين لأعلى نسبة

مشاهـدة على محطة تلفاز تجارية جشعة، هؤلاء الشباب السود والبيض و المغاربـة من الجيل الثاني تحولوا خلال أيام قليلة من رمز لفرنسا متعددة الثقافـات الرابحـة، إلى رمز للإفلاس الاقتصادي، وأيـن حصلت هذه المأساة؟ علـى ملعب الكرة؟ أم في مقصورة سماسرة البورصة؟ لا هذا ولا ذاك، وإنما على شاشات التلفـاز! فمرة أخرى حلت الصورة محل الواقع، وفرضت نفسها عليه.

ولكننـا نتوقـع أن الأسوأ من هذا قادم في المستقبـل، فبإمكاننا أن نبدأ بتذوق ما ينتظرنا في المستقبل بمشاهدة ما يعرض على الشاشات في فرنسا خـلال ساعات ذروة المشاهدة، وهـي لعبة تقوم على المزاح الماجن الممزوج بالسخريـة الذي تنال به مقدمة البرنامج من «المتسابقين». هذا البرنامج يلقى نجاحاً باهراً فالأطفال معجبون به كثيراً!

حسبكـم حسبكـم! كل هذا بهدف الضحك! ففـي الجانب الآخر لبحر المانش الناس أكـثر شراً، فعند الأنغلو ساكسـون (وهم أناس جديون) في مثـل هذه الألعـاب لا يُستفَز المتسابقون فقط بـل يُعرضون للإهانة، ونحن نقلدهم فتأتي النسخة أبهـت من الأصل، فالاستهزاء يحل محل الشتيمة، ولكننا لا بد أن نصل إلى السِباب في النهاية.

تخيـل الكاتب الأمريكـي ستيفن كينغ في عـام 1982م في كتابه الرجل اللاهـث مجتمعـاً تسيطـر عليه محطة تلفـاز، واحدة من الألعـاب الأكثر شعبيـة على محطـة ليبرتل هي إطلاق أحـد المتسابقين قبـل ساعات من إطلاق عصابة من القتلة خلفه، ويشارك المشاهد فعلاً كجاسوس، مفرغاً كل حقـده وكل نزواتـهِ في هـذا المتسابق التعيـس، إن قـدرة المشاهد على

التفكـير والتمرد تصبح عقبة، فينبطح أمام الجبروت السياسي الإعلامي لبعضـ المتسلطـين على حساب الغالبيـة من الآخرين، كان هـذا نوعاً من الخيال السياسي قبل عشرين عاماً، ولكننا مقبلون عليه شيئاً فشيئاً.

إلا إذا تذكرنـا، في الوقـت المناسـب أننا نملك حريـة الاختيار، وأن في كل مرحلة من مراحل تطـور مجتمعاتنا ما زلنا نملك حق الاصطفاء، وأن حدوث الأسوأ ليس قدراً.

علينا أن نمنع ذكاءنا من الانطفاء، ولنطفئ التلفاز، وسيشكرنا أطفالنا على ذلك لاحقاً، لقد خضنا بأنفسنا هذه التجربة.

كورنيه، لاروبيلا ـ تموز 2002م.

obeikandl.com

obeikandl.com

مختصر المراجع

رينيـه ديبو: آخر أجيال المكتوب، دار النشـر فاقر 1989م، أحدُ أفضل الكتب حول العلاقة بين الأمية والتلفاز، من ناحية الطرح والعلاج.

ليليـان لورسا: العنف على الرائي: الطفل المسحور، دار النشر سيروس ألترناتيـف، 1989م. المرجـع الـذي لا غنى عنـه ضد العنف علـى التلفاز وتأثيراتـه علـى الأطفـال، والمبني على احتـكاك شخصي مـع المشاهدين الصغار في وسطهم الطبيعي.

برونولوساتـو: الطفـل والشاشـة، ناتـان 1989م. تحليـل ملائم لمكان التلفـاز في حياة الأطفال والمجتمع، و علاقتـه مع الثقافة، تعتقد المؤلفة أن هـذه العلاقة مهددة إلى حدٍ كبير من خلال الحضور الدائم للصورة على حساب أشكال التواصل الأخرى.

فرانسـوا ماريه: دعوهم يشاهـدوا التلفاز، دار النشـر كالمان ـ ليفي 1989. أحـد الكتب النادرة لصالح التلفاز الذي لا يسبب غباء الأطفال بل يفتح أمامهم أشكالاً أخرى من الثقافة والسلوك ـ بحسب رأي المؤلف.

جاك بيفتـو: نشوة التلفاز. INSEP, 1984 رغم أن هذا الكتاب أصبح قديمـاً فإنه يبقى مرجعاً من حيث عمـوم تناوله للموضوع، وأسلوبه المثير، ونوعية كتابته واستقلاليته.

الخلاصات المرجعية ـ العلاقة بين التلفاز والطفل.

obeikandl.com